بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في هذا الكتاب صورة لإمام دار الهجرة تتراءى بين معالم اليسر والسماحة واتباع الأمر الأول، الذي أظهر قلة من المسلمين الأولين، على كثرة العالم المعروف، في بضع سنين.

وهذا الوجه الخلفي للصورة هو الخصيصة الأولى لرجل حيي حياته كلها في المدينة. فشغلت حياته بطولها. نصف حياتها – يومئذ – في الإسلام. وأضافت إلى سؤددها مجدا جديدا لها. بالعلم والعمل. وتيسير الوسائل للتطور.

والمسلمون من فاتحة القرن، وكلما أنشب العالم الحرب، يتحسسون السبيل للنهضة. ولقد قلنا قبل. ما نكرره اليوم في يقين وثقة، زادتهما التجارب العالمية إثباتا وقوة[1]: إن ماضينا الضخم، من تراثنا المسلم، هو مركز الثقل الذي يحفظ توازننا، في أمة واطمئنان. إلى جوار كونه ينبع من صميم الواقع. ويستنهض خلايا الجسم ذاته، ليقوي على علله وعاهاته.

وليس كمثل أئمة الفقه دلائل على أن الإسلام عصري في كل عصر. يقصد قصده في كل حضارة. أن كانت سيرهم قدوة للتقدم العلمي والحضاري. وأسوة للسمو النفسي والفكري. وكان فقههم ثبتا وضيئا لدعاة النهضة من بني العصر. الباحثين عن القوى العملية والعلمية المحركة لأداة التقدم. وكانت آية العدل المطلق. وآلة اليسر المسعف، مصدري القوة في مقاصد الشريعة التي أبلغت المسلمين أوجهم كلما التزموها.

وحياة مالك عالم عريض كعوالم الدول. نتج من عصر النبي عليه السلام، والعصر الذي خلف من بعده. فأي عصر وأي قدوة! وأي اتصال بالواقع الذي ظهر وازدهر وتطور، بظهور الرجال واختفائهم، وازدهار الدول وانقضائها!

---

(١) مقدمة: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام طبعة سنة ١٩٤٥ ومقدمة الإمام الشافعي طبعة سنة ١٩٦٧.

والتاريخ لا يعرف إماما – كهيئة مالك – وسعت حياته ثلاثة أجيال كبيرة.وثلاث عشرة خليفة. يجيئون ويذهبون. وهو باق بالمدينة سادن أمين للسنة. كأنه معلم من معالم الطبيعة. كالجبل أو كالبحر. ولما جلس إليه ستة من الخلفاء، فيهم ثلاثة من أعلم الخلفاء وأعظم العظماء. في يدهم مصاير القارات والحضارات. كان ذلك تسليما من الزمان على طوله. بأن فقهه يحمل عناصر العالمية والتقدم. فمدوا إليه بالأسباب وواجهوا. في ظله، أقطار عالمهم كله.

وما كان أعظمها تجربة للفكر الحي العملي الذي يفعل الواقع وينفعل به. فتشهد القرون له في شتى القارات والحضارات بآسيا. حيث نشأ. وأفريقية حيث استحكم. وأوروبا حيث تفرد العلم الإسلامي بالفكر العالمي في جوامع الأندلس وجامعاتها. فنقلت أوروبا علومها لتنتقل بها من جهالة القرون الأولى إلى عصر النهضة.

والتاريخ يعيد نفسه إذا أصلح الناس أنفسهم.

إلى القراء هذا المثل العالي. ليتأملوا. ويأملوا.

والله بالغ أمره...